شبابنا فى أوروبا

صبرى ، عثمان.
شبابنا فى أوروبا/تأليف عثمان صبرى ؛ تقديم نبيل فرج .- القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٠.
٤١٠ص؛ ٢٣سم .- (نصوص مسرحية؛١)

عرض
د. شريف سعد الجيار
مدرس النقد والأدب المقارن
كلية اللغات والترجمة
جامعة مصر للعلوم والتكنولوچيا

يبدأ كتاب «شبابنا فى أوروبا» للكاتب المسرحى «عثمان صبرى» بتقديم للأستاذ / نبيل فرج؛ وهو عضو اتحاد الكتاب المصرى ، وعضو المجلس الأعلى للثقافة، ونشرت له مقالات نقدية عديدة فى الآداب والفنون في مجلات وصحف فى القاهرة، وبيروت، ودمشق، وبغداد، والإمارات العربية، والكويت، ولندن، وغيرها، وصدر له ثلاثة وعشرون كتابًا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، والمجلس الأعلى للثقافة، والهيئة العامة لقصور الثقافة، ودار الهلال، ودار الكتب القومية، والمركز القومى للمسرح والموسيقى، ومكتبة الأنجلو المصرية.

يرى الأستاذ / نبيل فرج فى هذا التقديم (من ص ز إلى ص ن) - أن عثمان صبرى من الأسماء المجهولة فى تاريخ المسرح المصرى ، التى لم يرد ذكرها قط فى الدوريات أو الكتب ، رغم أنه - على ما يرى - على مستوى عال من الموهبة الفنية والطموح ؛ مثل إسماعيل عاصم ، وعباس علام ، وإبراهيم رمزى ، ومحمد تيمور وغيرهم .

ثم يعطى الأستاذ / نبيل نبذة عن حب صبرى المبكر للمسرح ؛ حيث يقول : « أولع عثمان صبرى بالمسرح. ومن الذكريات الجميلة التى ظلت راسخة فى نفسه، اصطحاب والده له فى مطالع القرن العشرين وهو فى التاسعة من عمره إلى دار التمثيل العربى لمشاهدة فرقة الشيخ سلامة حجازى التى كانت تقدم عروضها الغنائية الرفيعة، وذلك قبل أن يبدأ عثمان صبرى التأليف بسنوات، فى نهاية دراسته فى المدارس الثانوية وبعد تخرجه منها» / ص ز - غ .

ويذكر الأستاذ / نبيل فرج أن مسرحية «شبابنا فى أوروبا» ؛ هى أولى مسرحيات صبرى ، وقد نشرها صبرى فى الجزء الأول من مجموعته «روايات صبرى التمثيلية» التى صدرت عن المطبعة السلفية بمصر سنة ١٩٢٢ ، ويستمر نبيل فرج فى ذكر ما بداخل مقدمة صبرى للمسرحية ، ثم يذكر عرضًا سريعًا لما تحويه المسرحية من موضوعات ، كما ذكر عثمان صبرى فى مقدمته .

فضلاً عن ذلك ، فقد ذكر نبيل فرج - أيضًا فى هذا التقديم - أن هناك مسرحيات أخرى لصبرى - وهو ما ذكره صبرى فى مقدمته للكتاب- ولكنه لم يعثر عليها ، ويرى أنه من المحتمل أنها لم تنشر، وبقيت مخطوطة فى درج مكتبه ، ولم تظهر للنور؛ وهى «على من الذنب ؟»، و«العقدة»، و«الغدارة» أو عطيل الحديث، و«الشرف

المصرى»، و«الحاج عمر»، إلى جانب عدد من الروايات التاريخية العربية والمصرية القديمة ، ولكل مسرحية من هذه المسرحيات مقدمة خاصة بها، فضلاً عن مجموعة مقالات خيالية ، وآراء وأفكار حديثة وشعر منثور وبحث انتقادى عن الشعر العربى وقصص مصرية متنوعة ، إلى جانب أن «عثمان صبرى» قدم لفرقة عكاشة مسرحية كوميدية عنوانها «الخلاعة»؛ غير أنها لم تمثل ، وفقد نسختها الخطية الوحيدة . ويستمر الأستاذ / نبيل فرج - فى تقديمه هذا - فى عرضه المكثف لما تحويه مسرحية صبرى من موضوعات .

وبعد هذا التقديم للأستاذ نبيل فرج ، تأتى مسرحية «شبابنا فى أوروبا» لعثمان صبرى التى تقع فى (٤١٣) صفحة ، من القطع المتوسط؛ يصدرها المؤلف بغلاف عليه شكل ستار المسرح، وفى وسطه عنوان المسرحية ؛ كما يلى : «مجموعة روايات صبرى التمثيلية ، تأليف عثمان صبرى - ليسانسيه فى الحقوق - جزءا - شبابنا فى أوروبا مع مقدمة الكتاب - مبحث فى فن التمثيل - ١٩٢٢»، ثم يصدر المؤلف مسرحيته بإهداء الكتاب الذى يقول فيه : «إلى أبناء الشرق الناهض ، إلى مصر المستقبل الفنية، إلى نشء اليوم رجال الغد من نبذر فيهم بذور مسرح المستقبل ؛ أقدم مجموعة رواياتى التمثيلية. المؤلف» .

يتكون هذا الكتاب من مقدمة طويلة للكتاب، ثم تأتى المسرحية من خلال مقدمة للمسرحية ، ثم النص المسرحى .

تناولت مقدمة الكتاب - (من ص٣ إلى ص١١٨) - مفهوم مصطلح «التياترو» ، وهو - كما يعرفه الأستاذ عثمان صبرى - : «فن غرضه تمثيل الحياة الإنسانية بواسطة أشخاص أحياء وعدة فنون جميلة مشتركة لجماعة من المشاهدين (المتفرجين)» / ص٣ .

ثم تناول المؤلف علاقة المسرح بالفنون الأخرى من موسيقى، ورقص، ورسم، ونقش، وفن المعمار، وغيرها. ورأى أن المسرح أوسع الفنون الجميلة لاشتماله عليها جميعًا ، ثم تناول أصل التياترو وأقسامه، وتقسيم الروايات التمثيلية، وأنواع الروايات التمثيلية، والمسرح الطبعى والفورفيل، وأنواع التياترو العصرى ، والمؤلفين الهومرست، ونقد أنواع الروايات والأنواع الفاسدة؛ ولا سيما نوع (الفورفيل)، والتى يقول عنها : «فالفورفيل وأنواعه وفروعه إذًا من أحط أنواع التياترو إذ لا غرض له إلا مجرد اللهو كالرقص والمزاح والألعاب البهلوانية، بل إن أكثر أنواعه المسماة الطليقة أو الخليعة (leste) مخالفة جارحة للأخلاق وبذلك يصبح خطرًا على الأخلاق العمومية ووباء اجتماعيا» / ص١٣ .

ثم تناول عثمان صبرى - أيضًا فى مقدمته للكتاب - المذاهب المسرحية ، ورأى دوما ، ونتيجة التمييز بين الأنواع، ثم تحدث عن فوائد المسرح والتى حصرها فى سبع فوائد ؛ هى : أولاً / أن التياترو أحسن أنواع التسلية التهذيبية ، وثانيًا / أن الروايات التمثيلية من أهم وأكبر أنواع الآداب وأحد دعائم الشعر فى كل العصور ، وثالثًا / أن للتياترو فوائد اجتماعية وتهذيبية وعلمية كبيرة ، ورابعًا / لا يتميز الإنسان عن الحيوان بعقله وتفكيره فقط، بل يتميز بالشعور والإحساس والعواطف أيضًا. وهذه هى ميزة الإنسان المتمدين الراقى - على ما يرى صبرى ، وخامسًا / أن للتياترو فائدة أدبية كبرى؛ إذ يتأثر المشاهدون بأساليبه وتراكيبه وألفاظه الكتابية شعرًا كانت أو نثرًا ؛ فترتقى الأمة فى اللغة فضلاً عن رقى الخطابة والإلقاء اللذين هما أساس فن الممثل ، وسادسًا / أن التمثيل ابن الحضارة ؛ فهو مقياس لمدنية الأمم ورقيها ، وسابعًا /

أن التياترو أكثر الفنون تملكًا للنفس وأقدرها على أسر الألباب .

وبعد ذلك تناول المؤلف ضرورة المسرح، ونشوء المسرح ، وتطور المشاهد المسرحية ، واهتمام الحكومة الفرنسية بالتمثيل، ومنزلة الممثلين، ومنزلة المؤلفين، وتناولت المقدمة - أيضًا - التمثيل فى مصر ، ورأى «عثمان صبرى» أن حالة المسرح فى مصر - فى بداية القرن العشرين - محزنة ؛ فلم يكن بها بعد جوقة الشيخ سلامة حجازى إلا جوقة جورج أبيض ، وجوقة عكاشة وإخوته ، ثم ظهرت - بعد ذلك - جوقة رشدى، ثم عرض لأسباب إنحطاط المسرح فى مصر، وتكلم عن الممثل، والمؤلف والجمهور . ويرى صبرى فى هذه العلاقة «أن نجاح المؤلف موقوف بين يدى الممثل لأنه هو الذى يقدمه ويصوره للجمهور بل هو المنظار الذى ينظر منه الجمهور إلى المؤلف فيحكم عليه تبعًا لكون ذلك المنظار مكبرًا أو مصغرًا» / ص ٦١ .

ورأى صبرى فى هذه المقدمة - أيضًا - أنه يجب لرقى التمثيل والآداب فى مصر أن توجد آداب تمثيلية نثرية وشعرية كما هو الحال عند جميع الأمم الراقية حتى يتغذى منها ذوق الجمهور، وتتأصل فى نفوس أفراده فى أثناء سير الأمة إلى الرقى فى كل فروعها الحيوية ص ٨٦ .

ويذكر صبرى أنه كتب رواية تمثيلية على سبيل التجربة والتمرين قبل رواية «شباننا فى أوروبا»، ولكنه مزقها ، ثم تناول الحديث عن أهمية الاقتباس ولا سيما من المسرح الفرنسى .

ومما تناوله صبرى أيضًا - فى هذه المقدمة الطويلة- أن أسلوبه فى رواياته كان متباينًا ؛ حيث بدأ فى رواياته الأولى بلغة عربية فصيحة، ونظرًا لصعوبتها بالنسبة للتمثيل ؛ فقد مال إلى استعمال اللغة العامية، لأنها اللغة التى تفهمها كل طبقات الأمة .

وبعد هذه المقدمة الطويلة للكتاب ؛ تأتى مقدمة رواية «شباننا فى أوروبا» - (من ص ١٢١ إلى ص ١٩٢) - وفيها يبين الأستاذ عثمان صبرى منهجه فى مجموعاته الروائية التمثيلية ؛ حيث يقول : «رأيت أن أضع قبل كل رواية من مجموعة رواياتى التمثيلية مقدمة موجزة أبحث فيها عن موضوع الرواية وعماله مساس ورابطة » / ص ١٢١.

ثم تناول المؤلف الحديث عن روايته التمثيلية «شباننا فى أوروبا» وأوضح أنها ثانى رواية ألفها ، وقد كتبها فى أول سنة ١٩١٦، وكان حينئذ فى سن التاسعة عشرة من عمره ، ويمكن اعتبار هذه الرواية - على ما يرى صبرى - أول أعماله المؤلفة ؛ لأن الرواية التمثيلية السابقة لهذه الرواية ، لا تمثل أثرًا فنيًا يستحق الاعتبار أو الالتفات - على حد قوله - وهو ما دفعه إلى تمزيقها .

ويذكر عثمان صبرى «فى هذه المقدمة أن هذه الرواية - شباننا فى أوروبا - تصف حياة طبقة معينة من الناس وأخلاقها؛ هى حياة بعض الشبان المصريين وأخلاقهم فى أوروبا فيما يختص بعلاقاتهم النسائية. هذا فى مضمونها العام ؛ وهو ما ينتج عنه موضوعان اجتماعيان خطيران - على ما يرى صبرى - هما : موضوع الولد الطبيعى ، وموضوع الزواج بالأجنبيات ، وهو ما يجعل هذه الرواية ؛ رواية اجتماعية انتقادية ذات غرض ، وهو ما يتضح فى قول صبرى ذاته : «وحينئذ يمكننا أن نقول إنها رواية خلقية اجتماعية انتقادية ذات غرض، كذلك يمكن أن نضيف إلى ذلك هاتين الصفتين أيضًا : مصرية عصرية» / ص ١٢٣ .

ويتناول الأستاذ عثمان صبرى - بعد ذلك- موضوعى روايته التمثيلية ؛ حيث يتناول الموضوع

الأول : الدفاع عن الولد الطبيعى ، ويرى أن هذا الولد له الحق فى الالتحاق والانتماء إلى أسرة أبيه؛ لأنه من الوجهة الطبيعية ابنه كابنه الشرعى سواء بسواء . وحاول المؤلف أن يثبت بالقانون حق هذا الابن الطبيعى ، ثم تناول قانون نابليون فى فرنسا واهتمامه بهذا الولد الطبيعى، وفى هذا يقول : «فلما أخذ مشروع قانون نابليون فى عمل قانونه لم تفته ملاحظة قسوة القوانين القديمة وتطرف قوانين الثورة، فسلك مسلكا وسطا بينهما متوخيا الدفاع عن مبدئه الأساسى وهو حماية الأسرة مع عدم حرمان الولد الطبيعى من حقوقه على قدر المستطاع باعتباره ضحية بريئة لجرم والديه ... »/ ص ص ١٤٠ ، ١٤١ .

ثم تناولت المقدمة - بعد ذلك - نقدًا موجهًا لقانون نابليون بأنه ترك إثبات الأبوة ، واهتم - فقط - بإثبات سائر حقوق الولد الطبيعى فقط ، ثم تناولت المقدمة موقف الولد الطبيعى فى الشريعة الإسلامية ، وهو ما يتجلى فى قول عثمان صبرى : «نستنتج مما تقدم أن روح الشريعة الإسلامية هى عدم تضحية الولد الطبيعى ومنحه كل الحقوق بشرط اعتراف والده به ، مع تجاهلها أصله وإغضائها عن ذنب الوالد الزانى محافظة على المظاهر الأخلاقية .

وهـذه الروح التشريعية روح عالية مرتكزة على مبادئ أخلاقية راقية جديرة بالاحترام والإجلال» / ص ١٥٩ .

وفيما يتعلق بالموضوع الثانى الذى تضمنته الرواية التمثيلية ، بعد الدفاع عن حقوق الولد الطبيعى ، فهو - كما يسميه عثمان صبرى - الداء الذى يصاب به شباننا الذين ينزحون إلى أوروبا ، وهو الزواج بالأجنبيات الذى يرفضه المؤلف ، وهو ما يتجلى فى قوله : «ولا يرجى للوطن المصرى عن مثل هذه الزوجة والام خيرًا مطلقا فيمن ستنتجه من الذرية المختلطة الشائعة المبادئ ، والنفسية ؛ لذلك يمكن اعتبار زوج الأجنبية ميتا فى نظر وطنه وقوميته؛ لأن زوجته تنتزعه منهما إلى قومها ووطنها هى (ولكل قاعدة شواذ)» / ص ص ١٧٤ - ١٧٥ .

وتتناول المقدمة - بعد ذلك - أسباب الزواج بالأجنبيات التى تكمن - كما يرى المؤلف - فى جهل المصرية، وضعف الوطنية فى بداية القرن العشرين .

ورغم رفض الرواية للزواج من الأجنبيات ، غير أنها تستثنى من ذلك متزوج الأجنبية عن حب خالص حقيقى وشعور صادق .

وقد تمثل رفض الزواج من أجنبية - داخل الرواية - فى شخصية (جلال بك) الذى اعتبر الزواج بالأجنبية جريمة اجتماعية خطيرة ، فى حين تمثل الدفاع عن استثناء الزواج بالأجنبية - فى حالة الحب الحقيقى - فى شخص الشاب (حسن) ابن جلال بك .

وفضلاً عن الموضوعين السابقين، فقد تناولت الرواية موضوعًا ثالثًا ؛ هو النتائج السيئة التى تترتب على إهمال الزوج أمر زوجته، وعدم فهمه نفسيتها، ومشاركتها إحساسها وأمانيها ، وهو ما نجده - على ما يرى صبرى - فى الجزء المتعلق بالمسيو رنود الابن وزوجته .

وتناولت المقدمة - أيضًا - خاتمة الرواية ، وكيف أنها جاءت سارة مفرحة ؛ إذ تنتهى بموقف سار ، وبرضاء الجميع ، وسرور الجمهور .

وجدير بالذكر فى هذه المقدمة أمانة المؤلف الأستاذ عثمان صبرى ؛ حيث يصرح بأنه اقتبس من المسرح الفرنسى فى تأليف رواياته المسرحية ؛ وهو ما يوضحه فى قوله : «[ذكرت فى مقدمة

عروض موقعة ـــ

باريس، ثم يأتى الحوار المسرحى بين شخصيات الفصل .

ويتكون الفصل الثانى من (ثلاثة عشر مشهدًا) - (من ص ٢٤٢ - إلى ص ٢٨٥) - وفى بدايته يصف الأستاذ صبرى مسرح الأحداث؛ المتمثل فى حجرة الاستقبال بمنزل المسيو (رنو بدينار)، ثم يبدأ الحوار المسرحى بين شخصيات الفصل .

ويأتى الفصل الثالث المكون - أيضًا - من (ثلاثة عشر مشهدًا) ، وقد جرت أحداث هذا الفصل فى مكان أحداث الفصل الثانى نفسه، ولكن فى وقت العصر ، ثم يبدأ الحوار المسرحى .

وبالنسبة للفصل الرابع، وهو أطول فصول المسرحية وآخرها؛ فإنه يتكون من (سبعة عشر مشهدًا) ، تجرى أحداثها المسرحية ، فى نفس موقع الأحداث فى الفصلين السابقين / حجرة الاستقبال، ولكن بعد الغذاء، ثم يأتى الحوار المسرحى بين شخصيات العمل .

ومما سبق ، وبعد هذا العرض المطول لمسرحية «شباننا فى أوروبا» للكاتب المسرحى (عثمان صبرى) ؛ فإنه ينبغى الالتفات لإنتاج هذا الكاتب المتميز ، والبحث عن نصوصه المجهولة ونشرها ؛ لأنه يستحق أن يذكر مع غيره من كتاب المسرح المصرى الذين أرسوا دعائم الفن المسرحى فى مصر ، ومن ثم يأخذ مكانه بالقدر اللائق فى تاريخ المسرح المصرى ؛ وهو ما يثرى المكتبة العربية بإنتاج فترة مبكرة من تاريخ المسرح المصرى ، فترة بداية القرن العشرين .

مجموعة رواياتى أنى بدأت بالاقتباس من المسرح الفرنسى فى تأليف رواياتى الأولى التى أولها هذه]، لذا بها كثير من الاقتباس خصوصًا فى الفصلين الثانى والثالث ، أما الأول فأظنه خلوًا منه» / ص ١٨٥ .

وبعد هذه المقدمة الطويلة - أيضًا - بعض الشىء ، يأتى نص رواية « شباننا فى أوروبا » - [من ص ١٩٣ - إلى ص ٤١٠ -] ، وقد صدرها المؤلف بحديث شريف يقول : « ... أيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رءوس الأولين والآخرين» ، فضلاً عن قول من التوراة يقول : «حافظوا على تقاليدكم تصونوا أنفسكم» التوراة (سفر الأمثال) / ص ١٩٣ ؛ وهما نصان يسايران مضمون العمل المسرحى، ثم يأتى - بعد ذلك - إهداء المؤلف لشباب مصر الذين يعيشون فى أوروبا ، والذين يعيشون أيضًا فى مصر .

وبعد ذلك يعطى المؤلف نبذة عن كل شخصية داخل الرواية ، وتتمثل هذه الشخصيات المسرحية فى «عزيز بك، وحسن، وجلال بك، ورنو، واوكتاف، وكونراد، وجونل، وامرى، وميل، وجميلة، وروز ، وكلير ، ومدام دوفنيوبل، ومدام امرى، ومدعوات وزبونات القهوة».

وتتكون هذه الرواية المسرحية - التى تجرى أحداثها فى فرنسا فى عشرينيات القرن العشرين - من أربعة فصول ، وهو ما يتضح على النحو التالى :

يتكون الفصل الأول من خمسة مشاهد - (من ص ١٩٧ - إلى ص ٢٤١)، وفى بدايته يصف المؤلف مسرح الأحداث، المتمثل فى إحدى قهوات